الموضوع: **النقد البنيويّ** (Structuralism)

مدخل:

دأبت المناهج السياقية على دراسة الأدب من الخارج بعيدا عن جوهر النص مما عجل بظهور مناهج تهتم بـ: بنية النص ونسقه الداخلي، وعلى رأسها البنيوية، وهي "تيار فكري وصفي ينظر إلى الوحدات والعناصر ضمن بنية أو نسق عام يضبط علاقاتها لتكتسب قيمة أو معنى". يقول جاكبسون: "إذا أردنا أن نصف في إيجاز الفكر الذي يقود العلم الحديث في تجلياته المختلفة فلن نجد تعبيرا أدق من كلمة بنيوية".

أ- الخلفيات المعرفية للبنيوية:

تستمد البنيوية روافدها من ألسنية دوسوسير، وجاكبسون، وأنثروبولوجية ليفي ستروس، ونفسانية جان بياجييه وجاك لاكان، وحفريات ميشال فوكو التاريخية والمعرفية، وأدبيات رولان بارث..." ومن المسلم به أن المنهج البنيوي لم يأت من فراغ وإنما تقف وراءه خلفية فكرية وفلسفية شكلت مرجعيته الابستيمولوجية (*) التي قام عليها. وعلى رأسها:

1- **الفلسفة الوضعية** (Positivisme): ومع تطور وازدهار النزعة النقدية في مجال العلوم الطبيعية أخذت الفلسفة تيمم وجهها شطر العلم، إذ يرى أصحابها أنه "ينبغي أن ننصرف عن محاولتنا استكشاف علل للعالم الطبيعي فيما وراء هذا العالم"[1]. والنقد الموضوعي الذي ينزع نحو العلمية هو امتداد للفلسفة الوضعية المنطقية التي تكتفي بالوصف والتحليل دون إضافة شيء آخر. "**ذلك لأن البنيويّة وجدت ضالتها في الوضعية المنطقية التي تحصر الفلسفة في اللغة، وتصطنع في تحليلها معطيات المنطق الرياضي...**"[1]

2- **اللسانيات**، حيث ذهب معظم الباحثين إلى أن المبادئ اللغوية التي توصل إليها دوسوسير تمثل الأساس المتين للبنيوية التي انتقلت من اللغة إلى الأدب. وقد أحدثت قطيعة ابستمولوجية مع فقه اللغة والفيلولوجيا الدياكرونية، وكان الهدف من الدرس اللساني هو التعامل مع النص من الداخل وتجاوز المرجعي، واعتبار النص نسقا لغويا داخليا، لأن موضوع علم اللسان هو: "**اللغة منظورا إليها في ذاتها**" ويعرفها دوسوسير "**بأنها نسق لا يعرف إلّا طبيعة نظامه الخاص**" وبذلك أصبح المنهج البنيوي من أقرب المناهج إلى الأدب لأنه يجمع بين

(*)- **الابستمولوجيا**: (نظرية المعرفة)، هي نظرية الإنتاج النوعي للتصورات العلمية.

[1] - محمد عزام، تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحديثة، دراسة في نقد النقد، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، د، ط، 2003م، ص: 20&-+.

الإبداع وخاصيته الأولى وهي اللغة. وكانت أفكار سوسير تمثل البداية المنهجية للفكر البنيوي في اللغة وذلك عبر مجموعة من الثنائيات المتقابلة: اللغة والكلام، الدال والمدلول، التعاقب والتزامن، وفي ذلك يقول بنفنيست: "**إن اللغة في حدّ ذاتها لا تنطوي على أي بعد تاريخي إنها تزامن سانكروني**". ومن المؤثرات المبكرة التي تركت بصمات واضحة في الفكر البنيوي.

3– الشكلانية الروسية: وقد كان هذا التيار يقاوم النزوع الإيديولوجي لذلك ركز على دراسة الشكل الأدبي و كانت تحليلاته لمفهوم الشكل قريبة جدا من مفهوم البنية، لذلك يمكن القول إن البنيوية منهج ترعرع في أحضان الفكر الشكلاني حيث تقر أكثر الدراسات تخصصا: "**أن البنيوية هي النتيجة النهائية للتنظير الشكلاني**".

إن المبتغى النهائي للبنيوية هو إدراك البنية المنسجمة، فالنص عند البنيويين نسق ثابت ومغلق له بنية مركزية أو نظام تحتي خفي ذو وجود متعالٍ. فهو كيان منته في الزمان والمكان؛ أي تزامني و مغلق وثابت، والبنية نسق من العلاقات الباطنية، يذهب "جان بياجيه" "Jean Piaget" إلى أن البنية "عبارة عن "**نسق من التحولات له قوانينه الخاصة باعتباره نسقاً، وإن هذه البنية تتسم بخصائص ثلاث: الكلية والتحولات، والتنظيم الذاتي**"[2]. وتطرح البنية في النقد المعاصر كبديل نظري ومقترح إجرائي لثنائية الشكل والمضمون. ولذات السبب قال الإمام الشافعي: "**إني لأجد بيانها في نفسي، ولكن لا ينطلق بها لساني**"[3].

ب– خصائص العامة للمنهج البنيوي:

1– لقد استبدلت البنيوية بمفهوم الإنسان نسقا منتظما من البنى الثابتة، الموجود سلفا وجعلته الناطق باسمها (هـ) وصار(ت) المعبر الوحيد عنه بأوجه متعددة منها: السيكولوجي والاقتصادي والايديولوجي. والواقع أن البنيوية انتصرت للعلم على حساب الإنسان والتاريخ والفلسفة. "على اعتبار أن وجود ذات الكاتب وجود غريب عن النص منذ لحظة الانفصال بين الكاتب والمكتوب، **يقول جاك دريدا: Lorsque je signé je suis déjà mort**

---

[2]– **القراءة النسقية** تسعى إلى إضفاء الطابع الوضعي والعقلاني والمنطقي على دراسة الظواهر، وتنطلق من افتراض وجود منطق داخلي أو البنية: وهي محور أساسي لجدلية الخفاء والتجلي في الخطاب النقدي فراح يبحث عن كل ما يتعلق بالثنائيات في النصوص الأدبية، ينظر: أحمد يوسف: القراءة النسقية منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007.، ص: 219– 220.

[3] – عبد الرزاق عيد: في سوسيولوجيا النص الروائي، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 1988، ص: 14.

البنية: كما يرى جابر عصفور تصوّر عقلي أقرب إلى التجريد منه إلى التعيين.

2– البنيوية منهج (تيار) في التحليل الأدبي وتصور فلسفي يبعد (الملابسات) الخارج عن النص ويهتم بالبنية الداخلية في علاقتها وانسجامها الداخلي، كما لا يهتم بالمضمون المباشر بل يركز على شكل المضمون وعناصره وبناه التي تشكل نسقية النص في اختلافاته وتآلفاته. ومن هنا يمكن القول: إن البنيوية منهجية ونشاط وقراءة وتصور فلسفي يقصي الخارج والتاريخ والإنسان وكل ما هو مرجعي وواقعي ويركز فقط على ما هو لغوي. و عوضت الإنسان بلغته وهذا ما يعلنونه "**من أن اللغة تعبّر عن نفسها من خلال الإنسان**".

3– التعطيل المؤقت والمقصود لمحور البحث التاريخي في الأدب وتفعيل المحور المقابل وهو البحث في الأدب كنظام في حد ذاته؛ فالتاريخ فلسفة في الدرجة الأولى، والأدب لا يكون أدبا بما فيه من فلسفة وإنما بشيء آخر هو الذي سوف نطلق عليه بعد ذلك "**أدبية الأدب**" (Littérarité) هذه الأخيرة نقلت مركز القيمة في الأعمال الأدبية من الخارج إلى الداخل.

4 – ظل الطموح العلمي البنيوي هو تأسيس علم الأدب "الشعرية" (Poétique)، موضوعه "الأدبية". ورغبتها في بلوغ الصرامة العلمية والتفسير الكمي للظاهرة الانسانية. ولتحقيق هذا الطموح النسقي، تحددت مهمة الشعرية في صورنة وشكلنة (Formalisation) كل النصوص والأشكال الأدبية في "نحو كلي" مجرد على غرار نحو اللغة. ومثاله ما كان يرغب فيه المحللون الأوائل للمحكي: إرجاع كل محكيات العالم إلى بنية واحدة، أي تأسيس بنية سردية كبرى انطلاقا من هذه النماذج. أي "**البحث عن الأشكال الثابتة ضمن المضامين المتحولة**".

5– إن طبيعة المادة المكونة للأدب هي "**اللغة**"، فالأدب لا يتكون من أفكار ولا مشاعر ولا أراء، وإنما هو كما يقول رولان بارث "**جسد لغوي أو مجموعة من الجمل**"، ويوكد "بيرمان" "**إن القضية الأساسية عند البنيوية هي أن كل اللغة (كل النصوص) بناءً لمعنى مأخوذ من معجم ليس لمفرداته معانٍ خارج البناء الذي يضمها**"[4] .

6– ويظهر الفكر البنيوي (بوصفه مراقبا منعزلا ومجردا من الدعاوى الأخلاقية أو الميتافيزيقيا) ليستبعد الإنسان من مجال البحث، ضمن ما يعرف بنظرية موت المؤلف، ومعناها إلغاء أبوة النصوص الأدبية وغياب الوصاية. يقول بارث: "**يتوقف قيام علم الأدب بما يتاح له من قدرة على معالجة الأعمال الأدبية بوصفها أسطورة**" لأن لا أحد يدعي أن الأسطورة من تأليفه.

– إن شيوع المنهج البنيوي وسيطرته على الدراسات الأدبية في فرنسا لم يتحقق إلاّ في الخمسينات من القرن العشرين بعد أن أفل عصر الإيديولوجيات (الوجودية والماركسية) والنزعة الإنسانية، (بل إن البنيوية تزهر عند

[4] – كمال أبو ديب: جدلية الخفاء والتجلي، دار العلم للملايين، بيروت– لبنان، ط1، 1979، ص: 07.

نهاية الإيديولوجيات)، تقول إيديث كرزويل: "**لقد برزت الحاجة مع أواسط الخمسينات إلى ظهور حركة فكرية جديدة تتجاوز ما في الوجودية من إفراط في الذاتية**".